تحولات الخطاب في متشابهات القرآن الكريم

دراسة تطبيقية وصفية تحليلية

أ / نسيم إبراهيم الكحلاني

المقدمة:

كان الخطاب القرآني ولا يزال مدار الدراسات اللغوية، وهو خطاب لغوي يخاطب الأنبياء وأقوامهم، له مدلولاته وإشاراته التي لا تنتهي، وتنوع الخطاب أسلوب من أساليب التعبير القرآني، إذ يغاير القرآن الكريم بين صور الخطاب في آياته المتشابهات على وفق السياق الذي ورد فيه، فقد يرد في موضع بالإفراد وفي الآخر بالتثنية أو الجمع، وقد يرد بلفظ المخاطب في موضع وفي موضع آخر بلفظ الغائب، وهكذا. وهنا سيتم البحث عن سبب هذا التغاير، إذ إنَّ القدرة على ضبط اتجاه التحول في الخطاب الإلهي في القرآن الكريم يُعد أمرًا مهمًا لدى الباحثين في القرآن الكريم.

وقد استقر عنوان هذا البحث على (تحولات الخطاب في متشابهات القرآن الكريم)؛ وذلك لبيان أثر هذه التحولات في إثارة دهشة المتلقي وكسر أفق التوقع لديه من اطّراد على لفظ واحد، وبيان ما اشتمل عليه الخطاب القرآني من التفنن في سياق الآيات المتشابهات.

منهج البحث:

واعتمدت في هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي في تتبع ظاهرة التحولات الخطابية وبيان دلالاتها، واستعنت بمصادر أغنت هذه الدراسة، فتنوعت بين كتب التفسير القرآني وكتب اللغة.

الدراسات السابقة:

ولم يحظ هذا الموضوع بدراسة منفردة تتناول أشكاله ودلالاته في المتشابهات القرآنية تحديدًا، وإنما وجدنا إشارات مبثوثة هنا وهناك وردت عند بعض الباحثين حول تحولات الخطاب في آيات متفرقة من القرآن الكريم لا علاقة لها بالمتشابه، منها:

1 - (تحولات الخطاب القرآني في قصتي إبراهيم وموسى عليهما السلام)، تناول الباحث فيها التحولات في الأسماء والأفعال والحروف في هاتين القصتين، دون ذكر المتشابه.

2 - (تحولات بنى الخطاب القرآني في مشاهد القيامة والقص، دراسة أسلوبية للباحثة بلقيس كولي خفاجي)، اتخذت هذه الدراسة الأسلوبية منهجًا، وهو ما يجعلها مغايرة خطة ومنهجًا عمًّا جاء في هذه الدراسة.

الصعوبات التي واجهتها:

نظرًا لصعوبة الخوض في أعظم كتاب، عجز البشر عن الإتيان ولو بآية من مثله، فقد واجهت صعوبات كثيرة، لعل أهمها صعوبة التعامل مع النص القرآني؛ كونه نصًا مقدسًا يفرض على المتأمل فيه الحيطة والحذر في توخي معانيه والخوض في غمار تراكيبه ودلالاته.

هيكل البحث:

اقتضت الدراسة أن يقسم البحث على ثلاثة مباحث، وذلك على النحو الآتي:

المبحث الأول: تحولات الخطاب بين الإفراد والتثنية والجمع

المطلب الأول: تحولات الخطاب من الجمع إلى الإفراد.

المطلب الثاني: تحولات الخطاب من المفرد إلى الجمع، والمثنى إلى الجمع.

المبحث الثاني: تحولات الخطاب بين الغيبة والحضور والتكلُّم

المطلب الأول: تحولات الخطاب من الغيبة إلى الحضور.

المطلب الثاني: من المخاطَب إلى الغائب.

المطلب الثالث: من الغيبة إلى التكلُّم.

المبحث الثالث: تحولات الخطاب بين المخاطَب والمخاطِب

المطلب الأول: من المخاطَب إلى المخاطِب.

المطلب الثاني: من المخاطِب إلى المخاطَب.

وفي النهاية جاءت الخاتمة لتفسر أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

أسأل الله الكريم في عملي هذا التوفيق والسداد،،،

مدخل:

إذا نظرنا في نص الخطاب القرآني، نجد تنوعًا بحسب المخاطَبين وحالهم، فخطاب أهل مكة مغاير لخطاب أهل المدينة، وذلك لما يتناسب مع حال الكافرين وحال المؤمنين. ويمكن لكل إنسان أن يستوعب الجمال في أسلوب الخطاب القرآني ويقف على الإعجاز البياني؛ لأن القرآن في أسلوبه سلس العبارة واضح المعاني يخاطب العامة والخاصة من الناس والكل يجد فيه المتعة والجمال ويشعر بأنه متميز في أسلوبه المتنوع الذي يثير المشاعر.

وسيتناول هذا المبحث مغايرة القرآن الكريم بين صور الخطاب في آياته المتشابهات وذلك على وفق السياق الذي وردت فيه.

المبحث الأول: تحولات الخطاب بين الإفراد والتثنية والجمع

المطلب الأول: تحولات الخطاب من الجمع إلى الإفراد

ومنه قوله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ البقرة: ١٣٦.

وقوله تعالى: ﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ آل عمران: ٨٤.

فقد وجه الخطاب في سورة البقرة إلى ضمير الجمع، وفي سورة آل عمران إلى ضمير المفرد، ويعود سبب هذا الاختلاف إلى اختلاف المخاطبين في السورتين فقوله تعالى: «(قولوا) أمر لجميع المخاطبين المقصودين بهذا، وأما قوله (قل) فأمر للنبي (ﷺ)، فلحق ضمير الجمع أولاً بخطابهم، ولم يلحق ضمير في الثاني لإفراد الخطاب، وضمير الواحد لا يبرز»(1).

ويؤيد ذلك (أبو حيان) عند تفسيره للآية من سورة آل عمران، بقوله: «الظاهر في (قل) أنه خطاب للنبي (ﷺ) أمر أن يُخبر عن نفسه وعن أمته بقوله تعالى ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾، ويقوي ذلك أنه إخبار عنه وعن أمته قوله أخيرًا ﴿ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾، وأفرده بالخطاب بقوله: (قل)؛ لأنه تقدَّم ذكره في أخر الميثاق في قوله تعالى:

(1) درة التنزيل وغرة التأويل 299. وينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن 35.

﴿ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ ﴾ آل عمران: ٨١، فعينه في هذا التكليف ليظهر فيه كونه مصدِّقًا لما مع الأنبياء الذين أخذ عليهم الميثاق، وقال (آمنا)؛ تنبيهًا على أنَّ هذا التكليف ليس من خواصه، بل هو لازم لكل المؤمنين، وقال تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ بعد قوله ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾البقرة: ٢٨٥(2).

إذن فالخطاب في سورة البقرة لعامة المسلمين، فجاء بصيغة الجمع، في حين أنَّ الخطاب في سورة الأنعام للنبي (صلى الله عليه وسلم) فجاء بصيغة المفرد.

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ هود: ١٤.

وقوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾القصص: ٥٠.

يقول (الكرماني) «جُمع الخطاب ها هنا، وتوحيده في (القصص)؛ لأن ما في هذه السورة خطاب للكفار، والفعل يعود لـ ﴿ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم ﴾ هود: ١٣، وما في (القصص) خطاب للنبي (ﷺ) والفعل للكفار»(3).

وفي توجيه ذلك يقول (ابن جماعة) عند تفسيره لآية هود: «الخطاب يجوز من النبي (ﷺ) للكفار، أي فإن لم يستجيبوا لكم من دعوتموهم فاعلموا، فيكون من تمام خطاب النبي (ﷺ) لهم، ويجوز أن يكون الشرط خطابًا من الله تعالى للمؤمنين، ويكون قوله تعالى (فاعلموا)، أي فدوموا على عملكم، ويعني بعلم الله: بإذنه»(4).

ويبرر هذا الجواز بقوله: «وهذا الجواز؛ لأن ما سبق هذه الآية اشتمل على خطابين: خطاب الرسول (ﷺ) في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ ﴾ هود: ١٣، وخطاب الكفار، وهو قوله تعالى ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ هود: ١٣، فجاز أن يكون الخطاب في الآية السؤال من الرسول هود على الآية الأولى، وأن يكون من الله تعالى لهود على الآية الثانية»(5).

ويؤيده (أبو حيان) بقوله: «والضمير في ﭼ ﭫ ﭬ ﭭ ﭽ عائد على طلب من طلب منهم المعارضة، و(لكم) الضمير جمع يشمل الرسول والمؤمنين، ويجوز أن يكون خطابًا للرسول (ﷺ) على سبيل التعظيم، كما جاء

---

(2) ينظر: البحر المحيط 820/2. وملاك التأويل 29.
(3) البرهان في توجيه متشابه القرآن 82.
(4) كشف المعاني 210.
(5) كشف المعاني، الهامش، 210.

﴿ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ ﴾ القصص: ٥٠، وقيل: ضمير ﴿ يَسۡتَجِيبُواْ ﴾ عائد على المدعوين، و(لكم) خطاب للمأمورين بدعاء من استطاعوا»(6).

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿ **قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ** مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ البقرة: ٣٨.

وقوله تعالى: ﴿ **قَالَ ٱهۡبِطَا** مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴾ طه: ١٢٣.

ورد فعل الخطاب مسندًا إلى ضمير المتكلم جلَّ وعلا في سورة البقرة (قلنا)، ومسندًا إلى ضمير الغائب في سورة طه (قال)؛ وذلك لما تطلَّبه كل سياق، ففي سورة البقرة ورد ضمير الشأن (نا) اتصالاً ومواصلة للكلام المتقدم في الآية الكريمة: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ البقرة: ٣٦.

أما إسناد فعل الخطاب إلى ضمير الغائب في سورة طه فلملاءمة ما طوي من خطاب الله عزَّ وجلَّ لآدم (عليه السلام)، ومعاتبته إياه على ارتكابه للخطيئة، وطلب آدم المغفرة وطمعه في توبة الله عزَّ وجلَّ عليه، واكتفى بسرد الحديث عن هذه المحاورة بصيغة الغائب، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴾ طه: ١٢١ – ١٢٢، فاقتضى هذا الحديث عن أمر الهبوط بصيغة الغائب (قال)(7).

كما وقع الخطاب بالهبوط على ضمير الجمع في سورة البقرة، وضمير المثنى في سورة طه، ويمكن توجيه ذلك بأنه لمَّا كان الأمر بسكون الجنة والأكل منها في سورة البقرة موجهًا إلى آدم وزوجه بضمير المثنى، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا ﴾ البقرة: ٣٥، أتى بعدها الأمر بالهبوط متعلقًا بآدم وزوجته (عليهما السلام) وإبليس اللعين، فأضاف إلى (آدم) (حواء) اللذين عبَّر عنهما في قوله (كُلا) بضمير المثنى، عنصرًا آخر هو إبليس اللعين، فعدل عن الخطاب بالمثنى إلى الجمع؛ ولهذا قال (اهبطوا)(8).

(6) البحر المحيط 209/5. وينظر: فتح الرحمن 261. والكشاف 187/3.

(7) ينظر: التحرير والتنوير 441/1. وينظر: البحر المحيط 6/ 256.

(8) ينظر: التحرير والتنوير 16/ 328.

أما المذكور في سورة طه فكان الأمر بسكون الجنة والتمتع بها موجهًا إلى آدم (عليه السلام) – على وجه الخصوص - بوصفه القائد والحاكم وبيده العصمة، وكان الخطاب موجهًا له، والحديث وارد عنه دون الإشارة إلى زوجه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴾ طه: ١٢٠، فكان آدم (عليه السلام) المخطئ – الأول - بوصفه القائد، فنتج عن ذلك أن يكون أمر الهبوط موجهًا إليه –أولاً - إضافة إلى إبليس اللعين صاحب الوسوسة والمكيدة، فجاء خطاب الأمر بالهبوط بصيغة المثنى في قوله تعالى (اهبطا) والله أعلم.

ومنه قوله تعالى: قال تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُوا **فِيكُمْ** إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ ﴾ التوبة: ٨.

وقوله تعالى: ﴿ لَا يَرْقُبُونَ **فِي مُؤْمِنٍ** إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾ التوبة: ١٠.

فقد أُبدل الضمير في (كم) بلفظ (مؤمن)؛ لأن المقصودين من الخطاب في الآية الأولى هم الكفار، أما المقصودون في الآية الثانية فهم اليهود، وقيل: ذكر الأول وجعل جزاء للشرط، ثم أعاد ذلك تقبيحًا لهم، قال تعالى: ﴿سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٩ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾التوبة: ٩ – ١٠، فلا يكون تكرارًا محضًا[9].

المطلب الثاني: تحولات الخطاب من المفرد إلى الجمع، ومن المثنى إلى الجمع.

ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا **إِنَّنِي مَعَكُمَا** أَسْمَعُ وَأَرَى ۝٤٦ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا **إِنَّا رَسُولَا** رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾طه: ٤٦ – ٤٧.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا **إِنَّا مَعَكُم** مُّسْتَمِعُونَ ۝١٥ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا **إِنَّا رَسُولُ** رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الشعراء: ١٥ – ١٦.

يقول (ابن جرير) «﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ من قوم فرعون ما يقولون لكم، ويجيبونكم به»(10).

ومنهم من يجعل المعية هنا معية عامة؛ لأن المعية أسندت لضمير الجمع، فيكون فرعون معهم، فلا تدل على النصر والتأييد؛ لأن ذلك لا يكون لكافر(11).

---

(9) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن 73.

(10) جامع البيان 554/17.

يقول (الشنقيطي) إن «صيغة الجمع في قوله تعالى ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ للتعظيم، وما ذكره جلَّ وعلا في هذه الآية من رده على موسى (عليه السلام) خوفه القتل من فرعون وقومه، بحرف الزجر (كلا) وأمره أن يذهب هو وأخوه بآياته مبينًا لهما أنَّ الله معهم، أي وهي معية خاصة بالنصر والتأييد، وأنه مستمع لكل ما يقوله لهم فرعون...»(12).

وقد كان سياق طه في بيان ما منَّ به الله على موسى، وأخيه هارون (عليهما السلام) من اللطف، فكان المناسب لهذا نداؤه لهما بضمير المتكلم (إنني)، ثم بإضافة معيته الخاصة لهما، التي تكشف من نصره وتأييده ولطفه بهما.

أما سورة الشعراء فكان المقصود فيها أمر الرسالة، وبيان ما يلزم أنبياءه بشأنها، فقد جاء الضمير بصيغة الجمع؛ تعظيمًا لأمر الرسالة.

والفرق الآخر عدل عن المثنى في قوله تعالى ﴿إِنَّا رَسُولَا﴾ إلى المفرد في قوله تعالى ﴿إِنَّا رَسُولُ﴾وهنا قد يأتي الرسول بمعنى المرسَل وبمعنى الرسالة، فجعله في طه بمعنى المرسَل، فلم يكن بد من تثنية، وجعله في الشعراء بمعنى الرسالة، فجاز التسوية فيه بين الواحد والتثنية والجمع كما يفعل بالصفة في المصادر(13).

ويمكن القول أنَّ لفظ التثنية في طه ظاهر في بيان اللطف بالنبيين (عليهما السلام)وذلك بظهور المؤازرة لبعضهما في مقابلة الطاغية، وقد كان إرسال هارون (عليه السلام) في طه بطلب من موسى (عليه السلام)، قال تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ طه: ٢٩. والله أعلم.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن **طَهِّرَا بَيْتِيَ** لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ البقرة: ١٢٥.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا **وَطَهِّرْ بَيْتِيَ** لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ الحج: ٢٦.

(11) ينظر: معاني القرآن 67/5.

(12) أضواء البيان 369/6. وينظر: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني 89.

(13) ينظر: الكشاف 295/3- 296.

وجَّه الله عزَّ وجلَّ الخطاب في آية الحج إلى إبراهيم (عليه السلام) وحده دون ابنه في قوله ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾؛ لأن الخطاب هنا مباشر وصريح، إذ أمر الله سبحانه وتعالى نبيَّه إبراهيم (عليه السلام) بعبادته وتطهير بيته، وذلك واضح في قوله تعالى ﴿ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾، فكان الأمر مخصصًا له بوصفه أبًا للأنبياء وأول من تبرأ من عبادة دون الله، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ الزخرف: ٢٦ – ٢٧، فلما اقتصر التصريح على إبراهيم (عليه السلام) دون ابنه، اكتفى بالتعبير عن فعل التطهير بصيغة المفرد.

أما ما ورد في سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ ﴾، فإنه لم يرد بأمر التطهير قولاً، وإنما عبَّر عنه كناية بالمعنى، فقوله تعالى ﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ ﴾ أي أننا سلَّمنا مهمة التطهير لإبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام)، فلم يكن الأمر هنا مصرحًا به بالقول وإنما بالمعنى الذي شملهما معًا، فناسب ذلك مجيء فعل التطهير بصيغة المثنى(14).

ومنه قوله تعالى:﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ **ذَٰلِكَ** يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾البقرة: ٢٣٢.

وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ **ذَٰلِكُمْ** يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾الطلاق: ٢.

فقد أفرد عزَّ وجلَّ الخطاب في آية البقرة، وجمعه في آية الطلاق، ووجه ذلك – والله أعلم - أنه إشارة لتقليل المستجيبين المتورِّعين عن الطمع في أموال الزوجات، والإضرار بهن عضلاً أو احتيالاً على ما لديهن.

ولما كان الخطاب في سورة الطلاق أخفَّ في المطلب وأيسر في التكليف، فإنَّ الأحكام المتعلقة بالطلاق – وهي التي دارت عليها آي هذه السورة كلها - فروع ثوانٍ، فالسلامة فيها أيسر وسالك طريقها أكثر؛ فناسب ذلك ورود الخطاب بالحرف الذي يخاطب به الجميع ويشملهم ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾، وقال تعالى ﴿ مَن كَانَ يُؤْمِنُ ﴾ ولم يرد هنا ﴿ مَن كَانَ مِنكُمْ ﴾ (15). وهنا روعي في كل من السورتين ما بنيت عليه القصة في الأخرى.

(14) ينظر: روح المعاني 381/1.

(15) ينظر: ملاك التأويل 68. وينظر: مفاتيح الغيب 124/6.

في حين يرى (الخطيب الإسكافي) أنَّ «كل موضع أُفردت فيه (الكاف) والخطاب لجماعة، فإنما قصد بالكاف المفردة مخاطبة النبي، ثم العدول عنها إلى مخاطبة أمته، كقوله عزَّ من قائل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ الطلاق: ١، فلم يمنعه قوله ﴿ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ﴾ -وهو خطاب الجماعة - أن يُفرد للنبي خطابًا له مخصوصًا موحدًا، وهو قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾»(16).

أما توجيهه لآية البقرة فإن «الكاف في (ذلك) لخطاب النبي، والكاف في (منكم) خطاب لأمته»(17).

وفي ذلك يقول (الكرماني) «الكاف في (ذلك) لمجرد الخطاب، لا محل له من الإعراب، فجاز الاختصار على التوحيد، وجاز إجراؤه على عدد المخاطبين... وجاء بالواحد؛ لأن الخطاب للنبي (ﷺ) وخُصَّ بالتوحيد في هذه السورة؛ لقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ مِنكُمۡ﴾، وجُمع في (الطلاق)؛ لما لم يكن بعده ﴿مِنكُمۡ﴾»(18).

المبحث الثاني: تحولات الخطاب بين الغيبة والحضور والتكلُّم

المطلب الأول: تحولات الخطاب من الغيبة إلى الحضور

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ٦٥ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ **وَلِيَتَمَتَّعُواْ**ۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ العنكبوت: ٦٥ – ٦٦.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٣٣ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ **فَتَمَتَّعُواْ** فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾ الروم: ٣٣ – ٣٤.

ورد الخطاب في آية العنكبوت للغائب، في حين ورد الخطاب في آية الروم للمخاطَب المشاهَد، ويرجع (الخطيب الإسكافي) هذا التنوع إلى أن «الآية في سورة الروم وإن افتتحت بلفظ الإخبار عن الغائب، فإنَّ لها في لفظها نظيرة رُدَّت إليها وصارت كالفرع عليها، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةً مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ

(16) درة التنزيل 345. وينظر: كشف المعاني 155.

(17) درة التنزيل 346.

(18) البرهان في توجيه متشابه القرآن 30.

﴿أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ الزمر: ٨، فهذه الآية مفتتحة بمثل ما افتتحت به تلك الآية، إلا أن هذه الآية لواحد من الناس، وتلك للجمع، فصارت كالفرع على الأولى، فكان حملها في هذه اللفظة عليها أولى»(19).

ويتابعه (الأنصاري) ويقول: إن ما ورد في الروم بإضمار القول، أي: قل لهم تمتعوا، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ إبراهيم: ٣٠، أما ما جاء في آية العنكبوت فهو على القياس، إذ هو معطوف على اللام ومدخولها في قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ ومدخولها غائب(20)، وبذلك قال (الكرماني)(21).

أما (ابن جماعة) فيقول إن آيات الخطاب في سورة النحل هي في قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ النحل: ٥٣ – ٥٤، فناسب قوله (فتمتعوا)، أما آية سورة العنكبوت فافتتحت بالإخبار عن الغائب في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ العنكبوت: ٦٥، وكانت سائر الأفعال في الآية أجريت للغائب، فناسب التعبير بقوله تعالى (ليتمتعوا)(22).

وهناك من قرأ بكسر (اللام) في قوله تعالى: (ليتمتعوا) على أنها لام التعليل، وذلك في قراءة ورش عن نافع وأبي عمرو وابن عامر وعاصم، وقرأه قالون عن نافع وابن كثير وحمزة والكسائي بسكونها، فهي عندهم لام الأمر، وهي بعد حرف العطف تسكَّن وتكسر، وعليه فالأمر مستعمل في التهديد نظير قوله تعالى ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾، وهو عطف جملة التهديد على جملة ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ نظير قوله تعالى في سورة الروم ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، فقوله تعالى ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تفريع على التهديد بالوعيد(23).

---

(19) درة التنزيل 841.

(20) ينظر: فتح الرحمن 316.

(21) ينظر: البرهان 100. والبحر المحيط 155/7.

(22) ينظر: كشف المعاني 131.

(23) ينظر: التحرير والتنوير 33/21.

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ **وَيُعَلِّمُهُمُ** ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ البقرة: ١٢٩.

وقوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ **وَيُعَلِّمُكُمُ** ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴾ البقرة: ١٥١.

يعود اختلاف الخطاب لاختلاف المخاطِبين، فالمخاطِب في الآية الأولى هو إبراهيم (عليه السلام) عندما دعا ربَّه أن يرسل رسولاً يتلوا على قومه آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم.

أما نص الآية الثانية فالخطاب من الله تعالى بأنه بعث في الأميين رسولاً يتلو عليهم آياته ويزكيهم قبل مرحلة تعليمهم الكتاب والحكمة؛ لأن الجانب الخُلقي يأتي قبل الجانب التعليمي؛ ولأن الإنسان إذا كان غير مزكًّى في خُلقه لن يتلقى الكتاب والحكمة على مُراد الله تعالى، والرسول (ﷺ) من أهم صفاته أنه على خُلق عظيم(24).

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ **أَخۡرِجُوهُم** مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ الأعراف: ٨٢.

وقوله تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ **أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ** مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ النمل:٥٦.

يذهب (الخطيب الإسكافي) إلى أنَّ سبب إضمار (آل لوط) في سورة الأعراف وإظهاره في سورة النمل راجع إلى كون «ما جاء فيه الإظهار نازلاً قبل ما جاء فيه الإضمار، فلما أظهر في الآية المنزلة قبل اعتمد في القصة التي هي عدم ذكرهم على الإضمار الذي أصله أن يكون بعدم تقدم الذكر»(25).

ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ المقصود بأسبقية النزول هي القصة لا السورة؛ ذلك أنَّ سورة الأعراف متقدمة في النزول عن سورة النمل.

في حين يعزو (الغرناطي) سبب الإضمار والإظهار في الآيتين إلى الإيجاز والإطناب في وصف شناعة فعل قوم لوط في كلتي السورتين، فلما «زيد في تعنيفهم في النمل وتعريفهم بإتيانهم الفاحشة على علم بها، وذلك

(24) ينظر: ملاك التأويل 51.

(25) درة التنزيل 635.

أفدح في المرتكب، فلما زيد في تعريفهم، زيد في تعليل الإخراج بالتنصيص على (آل لوط)؛ لأن قوله (آل لوط) نص في إخراج جميع من هم من آل لوط (عليه السلام) وذويه وأهله من قوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ بزيادة الأعم بإزاء الأزيد في التقريع»(26).

ولعل هذا التعليل غير وجيه؛ لأن كلا السورتين فيها تقريع وتعنيف لقوم لوط، وقد تساوتا في ذلك.

أما (البقاعي) فلم يقدم أيًّا من السورتين على الأخرى في النزول وإنما يرى أن في قوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ إظهارًا لما أضمر في الأعراف؛ لأن الإظهار أليق بسورة العلم والحكمة(27).

في حين يرى (الألوسي) أنَّ «ذكر (أخرجوهم) هنا و(أخرجوا آل لوط) في النمل إشارة إلى أنهم قالوا مرة هذا وأخرى ذاك أو أنَّ بعضًا قال كذا وآخر قال كذا»(28)، أي أنه لا يرى فرقًا واضحًا بين الآيتين على الرغم مما فيها من إضمار وإظهار. وقريب منه رأي (ابن عاشور) في تفسيره(29).

ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ **إِنَّ ٱللَّهَ** غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ البقرة: ١٧٣.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ **فَإِنَّ رَبَّكَ** غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ الأنعام: ١٤٥.

يشير (أبو حيان) إلى آية سورة البقرة عند تفسيره لآية سورة الأنعام مبينًا سبب تنوع الخطاب في الآيتين، فيقول: «ولما كان صدر الآية مفتتحًا بخطابه تعالى ﴿قُل لَّآ أَجِدُ﴾، اختتم الآية بالخطاب فقال ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ﴾، ودلَّ على اعتنائه به تعالى بتشريف خطابه افتتاحًا واختتامًا»(30).

وهنا اقتصر (أبو حيان) في توجيهه على آية الأنعام، وكان توجيهه مختصرًا ومحصورًا في سبب مجيء قوله تعالى ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ﴾، خطابًا للرسول (صلى الله عليه وسلم)، وختمت به الآية الكريمة، وقد اختلف في توجيهه عن غيره من العلماء.

---

(26) ملاك التأويل 549.

(27) ينظر: نظم الدرر 435/5.

(28) روح المعاني 554/8.

(29) ينظر: التحرير والتنوير 6/20.

(30) البحر المحيط 314/4.

أما (الغرناطي) فله تعليل آخر يقول فيه: «﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وهذا التفات؛ لأن الجاري على ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾، أن لو قيل: فإن ربي، أو فإن الله، فعدل إلى الخطاب التفاتًا، فقيل ﴿ فَإِنَّ رَبَّكَ ﴾؛ لأن الكلام إذا تنوَّع حرَّك الخواطر إلى تفهمه... فورد الالتفات باسم الربوبية مع الإضافة إلى ضمير خطابه (ﷺ)»(31).

أما (ابن عاشور) فله توجيه جيد يقول فيه «إنما جاء المسند إليه في جملة الجزاء وهو (ربك) معرَّفًا بالإضافة دون العلمية كما في سورة البقرة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾؛ لما يؤذن به لفظ الرب من الرأفة واللطف بالمربوب والولاية، تنبيهًا على أن الله جعل هذه الرخصة للمسلمين الذين عبدوه ولم يشركوا به، وأنه أعرض عن المشركين الذين أشركوا معه غيره... فلما عبَّر عن الغفور تعالى بأنه رب النبي (ﷺ)، علم أنه رب الذين اتبعوه، وأنه ليس رب المشركين باعتبار ما في معنى الرب من الولاية، فهو في معنى قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ محمد: ١١، أي لا مولى يعاملهم بآثار الولاية وشعارها؛ لأن هذه الآية وقعت في سياق حجاج المشركين بخلاف آية البقرة، فإنها مفتتحة بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ البقرة: ١٧٢(32).

ومما تقدَّم نجد أنَّ جميع التوجيهات السابقة مقبولة وتعتمد على سياق الآيات، إلاَّ أني أرى أن أقربها تعليل (أبي حيان)، إذ ربط بين بداية الآية ونهايتها، حيث إن الخطاب في بداية الآية للرسول (ﷺ) (قل يا محمد) وفي نهاية الآية خطاب تشريف له (ﷺ) (فإن ربك).

المطلب الثاني: تحولات الخطاب من المخاطَب إلى الغائب

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا **عَلَيْكُمُ** ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ البقرة: ٥٧.

وقوله تعالى: ﴿ وَظَلَّلْنَا **عَلَيْهِمُ** ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ الأعراف: ١٦٠.

(31) ملاك التأويل 252. وينظر: تفسير أبي السعود 410/3.

(32) التحرير والتنوير 140/8- 141.

من المعلوم أن سورة البقرة تخاطب اليهود المعاصرين للنبي (ﷺ) وهي ببيانها النعمة على أسلافهم وببيانها جزاءهم، فإنها تدعوهم للإيمان وتحذرهم مثل صنيع أسلافهم؛ لكي لا يحل بهم مثل ما حل بأولئك، وهذا هو سياق البقرة. أما الأعراف فهي تسجيل تاريخهم، ومن ذلك بيان حالهم تجاه تلك النعمة، وهذا التاريخ هو دائمًا لمسارعتهم في العصيان.

أما عن تحول الخطاب في آية الأعراف من الغائب في قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ﴾ إلى المخاطب (كلوا) فتقديره «أي: وقلنا لهم كلوا... أما الرجوع إلى سنن الكلام الأول في قوله تعالى ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بعد حكاية خطابهم، فهو معطوف على جملة محذوفه للإيجاز والإشعار بأنه أمر محقق غني عن التصريح به، أي فظلموا بأن كفروا بتلك النهم الجليلة، وما ظلمونا بذلك ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾»(33).

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ﴾الأنعام: ١٥١.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡ﴾الإسراء: ٣١.

ذكر (الخطيب القزويني) توجيه هاتين الآيتين بقوله: «قدَّم المخاطبين في الأولى دون الثانية؛ لأن الخطاب في الأولى للفقراء، بدليل قوله تعالى ﴿مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ فكان رزقهم أهم عندهم من رزق أولادهم، والخطاب في الثانية للأغنياء، بدليل قوله تعالى: ﴿خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖ﴾ فإنَّ الخشية إنما تكون مما لم يقع، فكان رزق أولادهم هو المطلوب دون رزقهم؛ لأنه حاصل، فكان أهم، فقدَّم الوعد برزق أولادهم على الوعد برزقهم»(34). ولعل هذا توجيه مقبول.

ويقول (ابن الزبير) «وأما الآية الأخرى فقصد بها كفار العرب، وكان وأدهم البنات خشية الفقر المتوقع والعجز عن مؤنتهن فيما يتوقعونه مستقبلاً، فقيل: خشية إملاق، فجعلت الخشية في العلة في فعلهم»(35). ولعل

(33) إرشاد العقل السليم 282/3. وينظر: فتح الرحمن 110/1. وينظر: روح المعاني 263/1.

(34) الإيضاح في علوم البلاغة، 114. وينظر: تفسير أبي السعود، 302/2، والتحرير والتنوير، 159/8. وروح المعاني، 403/8، وكشف المعاني 175.

(35) ملاك التأويل، 479.

هذا التوجيه بعيد عن المقصود من الآية؛ لأنَّ الآية الكريمة ذكرت الأولاد في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم ﴾ وكلمة الأولاد تشمل البنين والبنات؛ لأن النفقة واحدة، والشائع في الجاهلية هو أنَّ وأد البنات كان بسبب الخوف من العار.

وقد أشار البقاعي إلى ذلك بقوله: «ولما أوصى بالسبب في الوجود نهى عن التسبب في الإعدام وبدأ بأشده، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم ﴾، «ولما كان النهي عامًّا وكان ربما وجب على الولد قتلٌ، خُصَّ لبيان الجهة، فقال تعالى: ﴿ مِّنْ إِمْلَٰقٍ ﴾، أي من أجل فقر حاصل بكم، ثم علل ذلك، ولأجل أنَّ الظاهر هو حصول الفقر قدَّم الآباء، فقال (نحن نرزقكم) بالخطاب، أي أيها الفقراء، ثم عطف عليه الأبناء، فقال (وإياهم)، وظاهر قوله في الإسراء ﴿ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ أنَّ الآباء موسرون ولكنهم يخشون من إطعام الأبناء الفقر، فبدأ بالأولاد، فقال ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ ﴾ ثم عطف الآباء، فقال ﴿ وَإِيَّاكُمْ ﴾»(36).

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً **فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ** وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ البقرة: ٥٥.

وقوله تعالى: ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً **فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ** بِظُلْمِهِمْ ﴾النساء: ١٥٣.

جاء سياق البقرة في تعداد النعم على بني إسرائيل، فجاءت آياتها على أسلوب الخطاب لهم؛ لأنها في سياق تذكيرهم بالنعم ودعوتهم للدخول في هذا الدين. أما سورة النساء فقد وردت القصة في سياق الترهيب والزجر لبني إسرائيل، فكان المناسب لهذا أن يكون الخطاب للنبي (ﷺ).

لقد كانت هذه الصاعقة لبني إسرائيل بسبب ظلمهم أنفسهم لمسألتهم موسى (عليه السلام) أن يريهم ربهم جهرة؛ لأن ذلك مما لم يكن لهم مسألته(37). وقد كانوا يعلمون أنَّ ذلك لم يكن لهم؛ لأنهم قيدوا إيمانهم بالرؤية عصيانًا منهم وتكبُّرًا(38). ولقد كانت سورة البقرة معنية بتذكير القوم بالنعمة استجلابًا لهم للإيمان، كما صرَّحت سورة البقرة بذنبهم القبيح، وهو تقييدهم الإيمان بالرؤية ومجاهرتهم بذلك.

يقول (ابن عاشور) «واستطرد هنا لما لحقهم من جرَّاء سؤالهم هذه الرؤية وما ترتب عليه، فقال تعالى ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾، وهو ما حكاه تعالى في سورة البقرة بقوله ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ

(36) نظم الدرر، 741/2. وينظر: البحر المحيط، 324.

(37) ينظر: جامع البيان 642/7.

(38) ينظر: التحرير والتنوير 15/4.

تَنظُرُونَ ﴾ وكان ذلك إرهابًا لهم وزجرًا ، ولذلك قال تعالى: ﴿ بِظُلْمِهِمْ ﴾، والظلم هو المحكي في سورة البقرة من امتناعهم من تصديق موسى إلى أن يروا الله جهرة»(39).

المطلب الثالث: تحولات الخطاب من الغيبة إلى التكلُّم

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ الأعراف: ١٠١.

وقوله تعالى:﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ يونس: ٧٤.

حيث أسند فعل (الطبع) إلى ذات الله بلفظ الجلالة (الله) وهو اسم ظاهر، أما في آية يونس فقد ورد فعل (الطبع) مسندًا إلى ضمير المتكلم بصيغة الجمع للتعظيم، وذلك أنَّ آية الأعراف تقدَّم فيها ذكر (الله) بالكناية قبلها، بقوله تعالى: ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ الأعراف: ١٠٠، فاستدعى ذلك ذكره بالصريح في ختامها ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(40).

أما سورة يونس فإنَّ فعل الطبع فيها وافق الأفعال التي وردت فيها مسندة إلى ضمير المتكلم بصيغة الجمع في الآيات التي وردت قبلها، وهي كذلك مسندة إلى ضمير المتكلم بصيغة الجمع(41)، قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ ﴾ يونس: ٧٣، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ يونس: ٧٥.

المبحث الثالث: تحولات الخطاب بين المخاطَب والمخاطِب

المطلب الأول: تحولات الخطاب من المخاطَب إلى المخاطِب

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ الأعراف: ١٠٩.

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ الشعراء: ٣٤.

نلحظ أنَّ القائل في الأعراف هم الملأ، والقائل في الشعراء هو فرعون، وقد سعى المفسرون في الجمع بين الآيتين، وقد اتفقت أقوالهم على أنَّ فرعون قد قال قوله في الشعراء، وقال الملأ قولهم في الأعراف، وهذا هو

(39) التحرير والتنوير 15/4.

(40) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن 80.

(41) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن 80، وكشف المعاني 108.

ظاهر النص القرآني، ثم حكوا أقوالاً في حقيقة قول فرعون وقول الملأ، فمنهم من يجعل القول لفرعون ثم تبعه الملأ، ومنهم من يجعل قول فرعون للملأ وقول الملأ لأعقابهم، ومنهم من يجعل قول الملأ تبليغًا لقول فرعون(42).

يقول (أبو حيان) «الجمع بينهما أنَّ فرعون وهم قالوا هذا الكلام، فحكى هنا قولهم وهناك قوله، أو قاله ابتداء فتلقفه منه الملأ، فقالوه لأعقابهم أو قالوه عنه الناس على طريق التبليغ كما تفعل الملوك، يرى الواحد منهم الرأي فيكلم به من يليه من الخاصة، ثم تبلغه الخاصة العامة، والدليل عليه: أنهم أجابوه في قولهم ﴿أَرْجِهْ﴾ الأعراف: ١١١»(43).

وقد أخذ بهذا التوجيه كل من البيضاوي والرازي(44).

في حين اعتمد (الخطيب الاسكافي) في توجيهه على ترتيب الاقتصاص، فرأى «أنَّ سورة الشعراء مكية كسورة الأعراف، وترتيب الاقتصاص يقتضي أن تكون قبلها، وفي سورة الأعراف أخبر عمَّا أدَّاه عنه ملؤه إلى الناس، فكان قول فرعون للملأ حوله سابقًا قول الملأ الذين أدَّوا إلى غيرهم قوله»(45).

أما (الكرماني) فيرى «أنَّ فرعون محذوف لاشتمال الملأ من آل فرعون على اسمه، والقائل هو فرعون وحده، بدليل قوله ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ الأعراف: ١١١، بلفظ التوحيد والملأ المقول لهم، والتقدير: قال الملأ من قوم فرعون وفرعون بعض لبعض»(46).

ثم يأتي (ابن الزبير) موافقًا من سبقه في أنَّ فرعون قال لملأه ولمن حضره ثم قال ذلك ملؤه لحاضريهم وبعضهم لبعض(47).

وعلى جميع الأقوال فقول فرعون كان متقدمًا على قول الملأ، وهذا ما يؤكده الخطاب القرآني في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ الزخرف: ٥٤، ومن سياق الأعراف الذي يقص خبر

(42) ينظر: الكشاف 134/2، وروح المعاني 22/9.
(43) البحر المحيط 454/4.
(44) ينظر: الكشاف 102/2، وتفسير البيضاوي 102/2، ومفاتيح الغيب 160/14.
(45) درة التنزيل 649.
(46) البرهان 80.
(47) ينظر: ملاك التأويل 561.

بني إسرائيل مفصلاً، فإن ذكر قول الملأ فيها يبين أنَّ الرأي قد استقر على ذلك، فهو بهذا يبين رأي فرعون ورأي الملأ؛ لأن الملأ تبع له، كما أنَّ فرعون من جملة الملأ.

أما سورة الشعراء فقد عنيت بذكر إعراض المعرضين عن رسالات الله، وشدة عنادهم الذي يقابل شدة حرص الرسل على إيمانهم، وكانت السورة تحكي ما دار بين موسى (عليه السلام) وفرعون، وتظهر شدة عناده، ولعل هذا سر اختصاص الشعراء بقول فرعون.

المطلب الثاني: تحولات الخطاب من المخاطِب إلى المخاطَب

ومنه قوله تعالى: ﴿أَنِّيٓ **أَخۡلُقُ** لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ **فَأَنفُخُ** فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾آل عمران: ٤٩.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ **تَخۡلُقُ** مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي **فَتَنفُخُ** فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ﴾المائدة: ١١٠.

يقول (الخطيب الإسكافي) أن ما جاء في سورة آل عمران إخبار الله عزَّ وجلَّ به عن عيسى (عليه السلام)، وقوله لبني إسرائيل ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، وعدَّد الآيات كلها عليهم، منها: أني آخذ من الطين ما أصوِّر منه صورة على هيئة الطير في تركيبه، فأنفخ فيه فينقلب حيوانًا لحمًا، قد ركب فيه عظم وخالط دمًا واكتسى ريشًا وجناحًا كالطائر الحي، والقصد في هذا المكان إلى ذكر ما تقوم به حجته عليهم، وهذا أول ما يصوّر من الطين على هيئة الطير. أما ما جاء في آية المائدة فهو في ذكر ما عدَّد الله من النعم على عيسى (عليه السلام)، وما أصحبه إياه من المعجزات، وما أظهر على يده من الآيات، وابتداؤها ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ﴾، والإشارة في هذه الآية ليست إلى أول ما يبديه لبني إسرائيل من ذلك محتجًا به عليهم، وإنما هي إلى جميع ما أذن الله تعالى في كونه دلالة على صدقه من قلب الصور التي يصورها من الطين على هيئة الطير(48).

وقد وافقه (الكرماني)(49)، و (ابن جماعة)(50)، و (الأنصاري)(51).

---

(48) ينظر: درة التنزيل 34- 35.

(49) ينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن 145.

(50) ينظر: كشف المعاني 129.

(51) ينظر: فتح الرحمن 67.

يتضح مما سبق وظيفة السياق اللغوي، الذي أتاح لنا تفسير أنساق التعبير القرآني وتوصيفه من خلال قيمه الجمالية والفنية، وأبرز السمات اللغوية التي يستعملها الخطاب القرآني، فالأسلوب القرآني لا يعمَد إلى العدول عن أصل التركيب إلا لتحقيق دلالة معينة يقتضيها السياق.

الخاتمة

اهتم هذا البحث بتفسير تحولات الخطاب القرآني في متشابهات القرآن الكريم، ومن ذلك ما جاء من تحول في الإفراد والتثنية والجمع، والغيبة والحضور والتكلم، ومن النتائج التي توصلت إليها الدراسة ما يلي:

- أوضحت الدراسة مدى ارتباط ألفاظ القرآن الكريم بعضها ببعض، حتى كانت كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني منتظمة المباني.
- بيَّنت الدراسة أنَّ السياق أحد أعمدة الترجيح الأساسية في تحليل تحولات الخطاب في مواضع المتشابه اللفظي، إذ تضافرت جميع عناصره من (زمن النزول المكي والمدني، والسياق الصرفي والمعجمي والدلالي والنحوي والمناسبة والفاصلة القرآنية، وسياق الآية والمقطع والسورة) في تحديد المعنى المراد والغرض المقصود من وقوع التحول في الخطاب، كما أنه مهم أيضًا في ضبط فهم المتلقي.
- إن لتغيير شخصية المخاطب (المتلقي) أثرًا كبيرًا في تغيير صيغة الخطاب.
- يعد تحول الخطاب في متشابهات القرآن الكريم دليلاً قاطعًا وبرهانًا دامغًا على كمال إعجاز القرآن الكريم وبيانه لغة وأسلوبًا، لفظًا ومعنى، ونفي التكرار عنه.

مصادر البحث ومراجعه

أولاً : القرآن الكريم

ثانيًا : المراجع

1. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود)، مطبعة عبد الرحمن محمد، القاهرة، (د.ت).
2. أضواء البيان، محمد الشنقيطي، د.ط، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، 1413هـ.
3. الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2002م.
4. البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، تح: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1993.
5. البرهان في توجيه متشابه القرآن، برهان الدين الكرماني، تح: السيد الجميلي، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، مصر، د.ت.
6. بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، فاضل صالح السامرائي، ط2، العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة، 2006م.
7. التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، 1984م.
8. تفسير البيضاوي، ناصر الدين البيضاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت.
9. جامع البيان، لابن جرير الطبري، تحقيق: محمود محمد شاكر، ط2، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، 1374هـ.
10. درة التنزيل وغرة التأويل، الخطيب الإسكافي، تحقيق: محمد مصطفى آيدين، ط1، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1418هـ.
11. روح المعاني، لأبي الفضل شهاب الدين الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
12. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، لأبي يحيى الأنصاري، تح: محمد علي الصابوني، ط1، دار القرآن الكريم، بيروت، 1983م.
13. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري، رتبه وضبطه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995م.

14. كشف المعاني في المتشابه من المثاني، بدر الدين بن جماعة، تح: عبد الجواد خلف، مكتبة ابن تيمية، ط1، 1990م.
15. معاني القرآن، لأبي زكريا الفرَّاء، ط3، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1983م.
16. مفاتيح الغيب، للفخر الرازي، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر، 1981م.
17. ملاك التأويل، ابن الزبير الغرناطي، وضع حواشيه: عبد الغني الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.
18. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.

Abstract

The current study aimed at investigating a Quranic context style which is the discourse transformation in the similar verses "Ayat". It has been noticed that the Quranic style varies in discourse among individuals, duals, plural, absents, speech. Therefore, the current study explains the semantics of each item in each context.

The researcher used the descriptive sematic method to investigate the discourse shift and explains its semantics.

The study results showed that:

- The cohesion level of the Quranic meanings, items with each other.

- The shift of the addresser 's personality has high impact on the shift of the discourse context.

- The context is the basic control in the discourse transformation in the Quranic similarities.